صلح الحديبية واستحضاره في العلاقات الدولية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فليست تنزل بأحد من الناس نازلة إلا وفي كتاب الله وسنة رسوله الدليلُ على سبيل الهدى والنجاة فيها، ولقد نزلت بأمتنا الإسلامية والعربية نوازلُ، وحلت بها أحداثٌ عظيمة تركت الجاهل بالشريعة حيران، وأحيانا شتاماً لواماً، بينما وقف العلماء الراسخون الموقف الصحيح؛ فاتُهموا من أهل الجهل والعجلة بتهم شتى، فتارة يُوصفون بأنهم علماء السلطان، وتارة بأنهم جهلة لا يفقهون الواقع، ولو رَد هؤلاء العامة المتعجلون الأمر إلى الخاصة من ولاة الأمر وأهل العلم الراسخين فيه؛ لعلمه الذين يستنبطونه منهم، كما هي دلالة القرآن الكريم في قوله جل وعلا: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)[النساء:٨٣].

ومن ذلك ما رأيتُه وسمعتُه في كثير من زياراتي للبلاد الإسلامية وغيرها من دول العالم، وحتى في بلادنا هذه؛ من نقاش وحوار حول أوضاع المسلمين، وكنت أسمع في كثير من هذه النقاشات التحسّرَ على ضعف المسلمين وتفرقهم، وذهاب ريحهم وقوتهم، وما وقع عليهم من الحروب والفتن والاحتلال لبعض أراضيهم، وخصوصاً في الأراضي المحتلة في فلسطين. وما جرى بعد ذلك من صلح

ومعاهدات مع إسرائيل من بعض الدول العربية، والتي تسمى دول المواجهة أو الطوق، وما تلا ذلك من تخوين وتضليل، بل وتكفير لحكام تلك البلاد -والعياذ بالله من الجهل والضلال-.

ومعلوم في السنة أن "من كَفّر مسلما فقد كفر"، و "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما". وفي رواية "...ولم يكن كذلك إلا حار عليه"، ومعلوم أن التكفير عظيم وخطير، ومرده إلى الله ورسوله، وله شروط، وله موانعُ تمنع أطلاقه، فهذا شأنه بصفة بعامة، فكيف يصم بذلك حكام المسلمين وقادتهم؟!!! بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ولا شك أن سبَّ الحاكم وتكفيرَه ذريعة للخروج عليه واستحلال دمه، ومن ثمّ الوقوع تحت وطأة الفوضى والفتن التي لا يعلم مداها إلا الله، فيصبح المجتمع مكشوفا أمام الأعداء.

وقد ذهب ضحيةً لهذا التكفير والضلالات رئيسُ أكبر دولة عربية -وقتها- وهو محمد أنور السادات -رحمه الله- على يد تلك الجماعات المتطرفة والمؤدلجة التي ترفع الإسلام شعاراً ودِثارا،ً وفي حقيقتها العذاب على المجتمعات الإسلامية والعربية حكاماً ومحكومين.

وقد كنت دائما أحرص على إيراد الأدلة من الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة الصالح في الحوار مع هؤلاء؛ لهدايتهم وردهم عن التكفير والمفاصلة

لمجتمعاتهم، أو كما يسميها منظر جماعة الإخوان المسلمين "سيد قطب" العزلةَ الشعورية عن المجتمع.

أقول: فهم إخواننا وإن حادوا وبغوا علينا، فرجوعهم إلى الحق أحبُّ إلينا.

وغالبا ما يكون دخولي في حلّ كثير من هذه الإشكالات والاتهامات التي عندهم في هذه المسائل عن طريق الاستشهاد بصلح الحديبية، الذي تم بين النبي ﷺ -وكان يمثل الدولة الإسلامية- وبين كفار قريش -الذين يمثلون دولة المشركين إبان ولايتهم على المسجد الحرام وما حوله من البلاد-.

وكذلك ما جرى من الصلح والمعاهدات بين النبي ﷺ وبين المشركين واليهود في المدينة وخيبر، فقد صالحهم صلحاً مُقيداً أو مطلقاً حتى نقضوه.

وفي الواقع لو لم تكن هناك نصوص تدل على جواز الصلح والمعاهدة والموادعة مع الخصوم والأعداء؛ لكانت مقاصد الشريعة وأصولها تُخوّل وليَ الأمر بذلك، فكيف والقرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية مليئة بالأدلة على ذلك!!

إن المتأمل لما جرى في صلح الحديبية من أحداث، ليستفيد دروسا عظيمة من الهدي النبوي الشريف، الذي يُعدّ أسوة للحاكم والمحكوم، وكذلك يتوافق مع الوحي والتأييد الرباني، ويُمثّل مرجعاً لمن يأتي بعد النبي ﷺ من الخلفاء والملوك والأمراء والرؤساء، وأصلاً في السياسة الشرعية.

كما قال الله جل وعلا: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم ١ : ٤].

وأسوق الآن ما جرى في صلح الحديبية بالإسناد الصحيح، كما روى البخاري عن المسور بن مخرمة ﷺ، وفيه:

"...فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بنُ ورْقَاءَ الخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِن قَوْمِهِ مِن خُزَاعَةَ، وكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسولِ اللهِ ﷺ مِن أهْلِ تِهَامَةَ، فَقالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بنَ لُؤَيٍّ، وعَامِرَ بنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، ومعهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وهُمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وأَضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرْ: فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ علَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمْرَهُ، فَقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ ما تَقُولُ، قالَ: فَانْطَلَقَ حتَّى أتَى قُرَيْشًا، قالَ: إنَّا قدْ جِئْنَاكُمْ مِن هذا الرَّجُلِ وسَمِعْنَاهُ يقولُ قَوْلًا، فإنْ شِئْتُمْ أنْ نَعْرِضَهُ علَيْكُم فَعَلْنَا، فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبِرَنَا عنْه بشيءٍ، وقالَ ذَوُو الرَّأْيِ منهمْ: هَاتِ ما سَمِعْتَهُ يقولُ، قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بما قالَ النبيُّ ﷺ فَقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ فَقالَ: أيْ قَوْمِ، ألَسْتُمْ بالوَالِدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فَهلْ تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لَا، قالَ: ألَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنِّي اسْتَنْفَرْتُ أهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بأَهْلِي ووَلَدِي ومَن أطَاعَنِي؟ قالوا:

بَلَى، قالَ: فإنَّ هذا قدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا ودَعُونِي آتِيهِ، قالوا: ائْتِهِ، فأتَاهُ، ... فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلى أصْحَابِهِ، فَقالَ: أيْ قَوْمِ، واللهِ لَقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللهِ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، واللهِ إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، وإنَّه قدْ عَرَضَ علَيْكُم خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ علَى النبيِّ ﷺ وأَصْحَابِهِ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: هذا فُلَانٌ، وهو مِن قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللهِ، ما يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابِهِ، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أرَى أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، فَقالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ عليهم، قالَ النبيُّ ﷺ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ ﷺ، فَبيْنَما هو يُكَلِّمُهُ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ مَعْمَرٌ: فأخْبَرَنِي أيُّوبُ، عن عِكْرِمَةَ أنَّه لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ النبيُّ ﷺ: لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِن أمْرِكُمْ قالَ مَعْمَرٌ: قالَ الزُّهْرِيُّ في حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو فَقالَ: هَاتِ اكْتُبْ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النبيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ ما أدْرِي ما هو ولَكِنِ اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ المُسْلِمُونَ: واللهِ لا

نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قالَ: هذا ما قَاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللهِ لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسولُ اللهِ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: واللهِ إِنِّي لَرَسولُ اللهِ، وإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ – قالَ الزُّهْرِيُّ: وذلكَ لِقَوْلِهِ: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا – فَقالَ له النبيُّ ﷺ: علَى أَنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولَكِنْ ذلكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: وعلَى أَنَّه لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإِنْ كانَ علَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، كيفَ يُرَدُّ إِلى المُشْرِكِينَ وقدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إِذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُودِهِ، وقدْ خَرَجَ مِن أَسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسِهِ بيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا يا مُحَمَّدُ أَوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ علَى شيءٍ أَبَدًا، قالَ النبيُّ ﷺ: فأَجِزْهُ لِي، قالَ: ما أَنَا بمُجِيزِهِ لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أَنَا بفَاعِلٍ، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قالَ أبو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلى المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟ وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللهِ، قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا، قالَ: بَلَى، قُلتُ: أَلَسْنَا علَى الحَقِّ، وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ، قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إِذًا؟ قالَ: إِنِّي رَسولُ اللهِ، ولَسْتُ أَعْصِيهِ، وهو نَاصِرِي، قُلتُ: أَوَلَيسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا

أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ، قالَ: قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَوَّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فَقُلتُ: يا أبَا بَكْرٍ أليسَ هذا نَبِيَّ اللهَّ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: أَلَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ إنَّه لَرَسولُ اللهَّ ﷺ وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ، فَوَاللهَّ إنَّه علَى الحَقِّ، قُلتُ: أليسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ ونَطُوفُ بِهِ؟ قالَ: بَلَى، أفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَوَّفٌ به، الَ الزُّهْرِيُّ: قالَ عُمَرُ -: فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالًا، قالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قالَ رَسولُ اللهَّ ﷺ لأصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قال: قَالَ فَوَاللهَّ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا " متفق عليه.

قلت: والمتأمل فيما جرى من أحداث في هذا الصلح، الذي سمّاه الله تعالى فتحاً مبيناً، كما قال الله جل وعلا لنبيه ﷺ بعد هذا الصلح، (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللهُّ نَصْرًا عَزِيزًا) [الفتح ١: ٣]، وكانت عاقبته على الإسلام خيرا، وإن

كان بعض المسلمين وصفه بالدنية، لـــمَّا رأوا أن الصلح ينص على رجوعهم دون الطواف بالبيت، وقدومُهم إلى الحرم من قابل، وكذلك التزام المسلمين بردّ من يأتيهم مسلماً من المشركين، مع عدم التزام المشركين بردّ من يأتيهم من المسلمين.

ورسول الله ﷺ لا شك مؤيد من الله، فالمتأمل يرى أن عاقبة الصّلح كانت خيراً على الإسلام والمسلمين؛ فقد أمن الناس، واتسعت رقعة الإسلام في جزيرة العرب وغيرها، حيث انتشر الصحابة دعاةً، وأسمعوا الناس كلام الله تبارك وتعالى، واعترفت قريش بهذا العهد والصلح بالدولة الإسلامية أمام جميع العرب، بل أمام الناس أجمع، وكاتب رسول الله في مدة هذا الصلح الحكام والملوك، وعرض عليهم الإسلام، ومن أبرز هؤلاء: ملك فارس وهو كسرى، وملك الروم وهو هرقل، وملك مصر وهو المقوقس، ودخل في حلف النبي ﷺ الكثيرُ من الناس، وأمن رسول الله ﷺ والمسلمون عداوة قريش ومكرهم وتأليبهم الناس على المسلمين، وتفرغوا لأعداء آخرين ومصالح كثيرة جداً.

وفي هذه المدة دخل في الإسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، وهما مَن هما في الرأي والمكانة.

وقد أوفى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بعقده وعهده، حتى إنه ردّ مَن جاءه إليهم، وهو أبو بصير رضي الله عنه والذي فرّ من المشركين بعد ذلك، وفي هذا رعاية للنصوص الشرعية، كما قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) [المائدة:١]، وقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ

جَعَلْتُمُ اللهَّ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) [النحل:٩١]، وقوله تعالى: (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الأنفال: ٧٢]، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ، فقد حفظ العهود والمواثيق.

ولا شك أن ولي الأمر والحاكم –سواء كان ملكا أو أميرا أو رئيسا بما يملكه من مقاليد الأمور، والاطلاع على الحقائق والأسرار التي لا يعرفها الخاصة فضلا عن العامة– هو المُخوّل والمؤتمن على مصالح شعبه ورعيته، وهو الأقدر على الموازنة بين المصالح والمفاسد، وتغليب بعضها على بعض، والترجيح بينهما ودفع أعلاهما بأدناهما.

وصدق عمرو بن العاص ﷺ حين قال: "لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرَّيْنِ".

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيلُ المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع ا.ه".

كما أن ولي أمر المسلمين أعرف بمآلات الأمور، ومن ثمّ فإليه قرار السلم والحرب، وإبرام العهود والعقود بما يخدم مصالح الدولة والرعية.

وأنا لا أشك أن كل مُكلّف ومسؤول وحاكم في العالم كله –سواء كان مسلما أم غير مسلم– أن لديه مستشارين –بل النبي المعصوم ﷺ كان يستشير الخاصة من

أصحابه، كما قال تبارك وتعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) [آل عمران: ١٥٩].

فيتحصل لولي الأمر من تلك الاستشارات والرؤى الجزئية رؤية كلية لكل أمر، أو ما يستجد من أحداث، ثم هو المسؤول أمام الله تعالى في اتخاذ ما يراه أصلح لدولته ورعيته.

والمتأمل لصلح الحديبية يرى أنه يجوز لولي الأمر أن يعقد الصلح والمعاهدات مع الغير سواء كان من المسلمين المخالفين أو الكفار المحاربين أو المسالمين، حسب ما تقتضيه المصالح الشرعية والسياسية التي تجلب المصالح وتُكثرها، وتدفع المفاسد عن الدولة والرعية وتقللها.

وكذلك يُستفاد من صلح الحديبية أنه يجوز لولي الأمر أن يستعين بالمشرك المأمون في قتاله وجهاده عند الحاجة لذلك، فقد كان بُديل بن ورقاء الخزاعي ومن معه من رجال قومه كُفارا إذ ذاك، وكانوا عيبة نصح للنبي ﷺ وعيناً له على المشركين، وفيه من المصلحة أنهم أقرب إلى اختلاطهم بالعدو وأخذ أخبارهم، كما قال الإمام ابن القيم –رحمه الله– في فوائد قصة الحديبية في كتابه "زاد المعاد في هدي خير العباد".

–وذكر –رحمه الله– أن الإمام وولي أمر المسلمين يجوز له الابتداء بطلب الصلح من الأعداء إذا رأى المصلحة للمسلمين في ذلك، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

والمتأمل في صلح الحديبية أيضا يرى أن ولي الأمر لا بد له من عيون تجمع له الأخبار، وحالِ الأعداء والمخالفين في كل صغير وكبير وهذا ما يسمى عند الدول "استخبارات وأمن الدولة"، وهذا ضرورة من ضرورات الدول والسياسة؛ ليعرف الحاكم كيف يتعامل مع كل حدث، وليرعى مصالح دولته ورعيته.

والناظر في السيرة النبوية يتضح له ذلك جليا، فقد كان للنبي ﷺ عيون تأتيه بالأخبار، بل فعل ذلك النبي ﷺ في كل غزواته وسراياه، ومن ذلك تكليفه أحد أصحابه في غزوة الأحزاب، بقوله: "مَن يأتينا بخبر القوم"، ويجب على العين أن يكون أمينا على هذه الأسرار، وهي من أعظم الأمانات، كما قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنفال: ٢٧].

ومن الفوائد المستنبطة من صلح الحديبية أيضا:

- جواز التحالف مع غير المسلمين إذا كان لمصلحتهم ويزيد في قوتهم.
- وكذلك جواز توسيط المشركين في الصلح والمعاهدات كما توسط أولئك الرجال الكفار في الصلح
- التنازل عن بعض الحق أمام الخصوم في سبيل إدراك مصلحة أعظم؛ فقد رضي رسول الله ﷺ بأن يُمحى عنه صفة رسول الله، وأن يُكتب اسمه المجرد ﷺ، وأن يُكتب باسمك اللهم بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم.

- الإسلام يقدم السلام على الحرب، ولا يتشوف للقتال، قال الله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الأنفال: ٦١]، وأخرجه البخاري في صحيحه بسنده إلى عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال ﷺ: أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"، وقال :ﷺ"دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم". أخرجه أبو داود، وحسنه الألباني.
- الصلح مع الأعداء لا يعني تعطيل الاستعداد الدائم للجهاد في سبيل الله، والذود عن الوطن والأمة.
- يجوز للحاكم أن يُعاهد الأعداء عهداً مطلقاً أو مقيداً؛ حسب ما تقتضيه المصلحة وما يراه.
- مشاركة المرأة في الشورى، حيث أخذ النبيُ ﷺ بمشورة أم سلمة رضي الله عنها.
- أهمية معرفة أحوال المفاوضين والوسطاء واغتنامها للصالح العام.
- ولأهمية هذا الصلح استدل به ابن عباس ﷺ على الخوارج.
- من الحكم أن أهل الحل والعقد ينبغي أن يرفقوا بالعامة ويبينوا لهم الحكمة فيما أشكل عليهم كما فعل النبي ﷺ ما لم يكن في إظهاره ضررٌ على الدولة أو الرعية.

- وفيه عدم التسرع، والإعجاب بالرأي دون الرجوع لولاة الأمر الذين هم أعلم بالحال والمآل.
- وجوب الوفاء والالتزام بالعهد والمصالحة وعدم الغدر.
- إذا غدر أو خالف أو طعن في العهد والصلح مَن ليسوا تحت سلطة الحاكم ووليِ الأمر فلا مسؤولية ولا ضمان على الدولة ولا على الرعية.
- في هذا الصلح راسل رسول الله ﷺ ملوك الفرس والروم والقبط، يدعوهم إلى الإسلام، وأسلم في هذه المدة كثير من عظماء الإسلام والصحابة،
- الصلح مع الكفار من اليهود والنصارى و غيرهم لا يلزم منه مودتهم ولا موالاتهم، بل ذلك يقتضي الأمن بين الطرفين، وكفَّ بعضهم عن إيذاء البعض، وكذلك البيع والشراء وتبادل السفراء للمنافع المشتركة والمعاملات التي لا تقتضي مودة الكفرة ولا موالاتهم.

وأختم مقالي هذا بكلام نفيس للإمام عبد العزيز بن باز رحمة الله علينا وعليه في مجموع الفتاوى ٨/ ٢٢٠ وما بعدها:

"وقد صالح النبي ﷺ أهل مكة، ولم يوجب ذلك محبتهم ولا موالاتهم، بل بقيت العداوة والبغضاء بينهم، حتى يسّر الله فتح مكة عام الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا، وهكذا صالح النبي ﷺ يهود المدينة لما قدم المدينة مهاجرا صلحا مطلقا، ولم يوجب ذلك مودتهم ولا محبتهم، لكنه عليه الصلاة والسلام كان

يعاملهم في الشراء منهم والتحدث إليهم، ودعوتهم إلى الله، وترغيبهم في الإسلام، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله، ولما حصل من بني النضير من اليهود الخيانة أجلاهم من المدينة عليه الصلاة والسلام، ولما نقضت قريظة العهد ومالؤوا كفار مكة يوم الأحزاب على حرب النبي ﷺ قاتلهم النبي ﷺ فقتل مقاتلتهم، وسبى ذريتهم ونساءهم، بعدما حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فيهم فحكم بذلك، وأخبر النبي ﷺ أن حكمه قد وافق حكم الله من فوق سبع سماوات.

١- وهكذا المسلمون من الصحابة ومن بعدهم، وقعت الهدنة بينهم -في أوقات كثيرة- وبين الكفرة من النصارى وغيرهم، فلم يوجب ذلك مودة ولا موالاة، وقد قال الله سبحانه: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) [المائدة:٨٢] وقال سبحانه: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) [الممتحنة:٤] وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [المائدة:٥١] وقال عز وجل: (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ الآية) [المجادلة:٢٢]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومما يدل على أن الصلح مع الكفار من اليهود وغيرهم إذا دعت إليه المصلحة أو الضرورة لا يلزم منه مودة، ولا محبة، ولا موالاة: أنه ﷺ لما فتح خيبر صالح اليهود فيها على أن يقوموا على النخيل والزروع التي للمسلمين بالنصف لهم والنصف الثاني للمسلمين، ولم يزالوا في خيبر على هذا العقد، ولم يحدد مدة معينة، بل قال ﷺ: نُقركم على ذلك ما شئنا وفي لفظ: نقركم ما أقركم الله، فلم يزالوا بها حتى أجلاهم عمر... وهذا كله يبين أن الصلح والمهادنة لا يلزم منها محبة ولا موالاة ولا مودة لأعداء الله، كما يظن ذلك بعض مَن قَلّ علمه بأحكام الشريعة المطهرة.

وقال -رحمه الله-: "لا يلزم من الصلح بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين اليهود ما ذكره السائل بالنسبة إلى بقية الدول، بل كل دولة تنظر في مصلحتها، فإذا رأت أن من المصلحة للمسلمين في بلادها الصلح مع اليهود في تبادل السفراء والبيع والشراء، وغير ذلك من المعاملات التي يجيزها شرع الله المطهر، فلا بأس في ذلك. وإن رأت أن المصلحة لها ولشعبها مقاطعة اليهود فعلت ما تقتضيه المصلحة الشرعية، وهكذا بقية الدول الكافرة حكمها حكم اليهود في ذلك.

والواجب على كل من تولى أمر المسلمين، سواء كان ملكا أو أميرا أو رئيس جمهورية أن ينظر في مصالح شعبه فيسمح بما ينفعهم ويكون في مصلحتهم من الأمور التي لا يمنع منها شرع الله المطهر، ويمنع ما سوى ذلك مع أي دولة من دول الكفر؛ عملا بقول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

[النساء:٥٨] وقوله سبحانه: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) [الأنفال:٦١]. وتأسيا بالنبي ﷺ في مصالحته لأهل مكة ولليهود في المدينة وفي خيبر، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والعبد راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ثم قال ﷺ: ألا فكلكم راع ومسؤول عن رعيته". وقد قال الله عز وجل في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنفال:٢٧]. أ.هـ.

فينبغي على المجتمع الإسلامي أن يكون متحابا متناصحا، كما قال ﷺ "الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".

وليعلم عامة الناس أن الله قد عافاهم من أمور عظيمة لو انشغلوا بها؛ لأفضى ذلك إلى منازعة أهل الأمر، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى، ولا يُقره الأثر ولا النظر، وفي الحديث: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم".

وليحذر كل مسلم من تلقي الأخبار الكاذبة، ونشر الإشاعات المُغرضة، وإساءة الظن بالناس عامة، وبولاة الأمر خاصة، الذين جعل الله لهم منزلة رفيعة، فإن هذا من أعظم المعاصي والكذب، ففي الحديث الصحيح "بئس مطية الرجل زعموا"،

وقد قال الله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) [الحجرات: ٦]، وقال ﷺ :" " كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع"، وقال عمر ﷺ: "إياكم والفتن، فإن وقع اللسان فيها كوقع السيف".

وفي الحديث الصحيح: "وكره لكم قيل وقال".

وقال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) [الحجرات: ١٢]، وفي الصحيح قوله ﷺ: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث".

وإن سوء الظن بولاة الأمر والمسؤولين من أعظم مداخل شياطين الإنس والجن، الذين أفسدوا على المسلمين دينهم ودنياهم.

ولتكن هذه الآية العظيمة نُصب أعيننا جميعا، لا سيما في الأمور العامة، قال الله جل ذكره (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) [النساء: ٨٣].

كتبه: أ.د. خلف بن حمود الشغدلي

رئيس الثقافة الإسلامية بجامعة حائل

٢٢/ ١١/ ١٤٤٠هـ